النفس والعقل

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾

النفس هى خلاصة الإنسان ، وهى ملك لخالقها ، ومن صنعه ، وهو - سبحانه وتعالى - الأعلم بها ، ولا يكلفها إلا وسعها ، وهى - فى نفس الوقت - الشغل الشاغل (الرئيسى) والقضية الأولى لكل عاقل - وما دون العاقل من العجماوات - وهذا الاهتمام نابع من الحب الفطرى للنفس والذى بدونه لا يوجد للحياة معنى. إن اهتمام كل فرد بنفسه صفة تسيطر على غالبية البشر ، فحب النفس جبلى ؛ للحفاظ عليها لأن النفس هى أول محاور الرؤية ومركز التفكير ونقطة بداية الشعور ، وضياع النفس يعنى ضياع المعانى واضطراب الأشياء واختلال التوازن والموازين العقلية.

وحين نتأمل النفس - كما دعانا ربنا - سنجد أن جوهر النفس هو العقل ، وحين يغيب العقل تنكمش النفس وتتجمد. ويتعذر الإحساس بأى شىء بدون العقل ، والشعور بالسعادة أو بالشقاء يكون عن طريق العقل. والمعرفة مستحيلة بدون العقل ، وأفضل وأنفع المعرفة - على الإطلاق - هى معرفة العقل لخالقه ، ثم معرفة المرء نفسه ؛ فلا يمكن معرفة النفس بدون معرفة خالقها

ومراحل خلقها وغايتها. وقد تكلم الناس فى مسألة النفس من مختلف الطوائف - كل من زاويته ومنذ القدم - دون الوصول إلى قول فصل ؛ لأن أبعاد النفس شديدة العمق والتشابك والغموض ، ولا توجد نفس كالأخرى وإن وجد بعض التشابه السطحى. ومن فضل الله أن ما يدور بداخل النفس (فى عقلها) لا يمكن أن يطلع على حقيقته مخلوق ، فلو إطلع الناس على ما يدور بعقلك لتغيرت نظرتهم إليك وصعب تعاملك معهم وتعاملهم معك ، ولكنه ستر الله الذى يرزقنا ويرعانا ، رغم علمه بأحوال نفوسنا ومدى الإخلاص إن وُجد!

والنفس أساسا روحَ (لا مادة) ، والجسد بمثابة أداة (أو مَرْكَبة) مؤقته والعقل هو القائد ، ولهذه المركبة أصبح من الشائع والمألوف أن يُركّب لها قطع غيار بشرية كالكلى ، وصناعية كالقلب الصناعى ، وربما قريبا تُستخدم القطع الحيوانية ، والمحاولات جارية ونجاحها شبه مؤكد ؛ فكلها مكونات ترابية ، والمسألة مسألة وقت محدد مسبقا فى علم الذى خلق كل شيء - سبحانه وتعالى. وعمليات تركيب قطع الغيار هذه هى مجرد وسائل قدرها العليم الخبير لتستوفى كل نفس أجلها المحدد فى كتاب الله يوم خلق الخلق. و نظرا لعلاقة النفس بالروح فيستحيل فهم ما يتيسر عن النفس بدون استحضار ما نزل من لدن العزيز الحكيم. وفى هذا الفصل نحاول تناول النفس بالعقل فى إطار سلامة النقل ، آملين إضافة ما يتيسر فى توضيح علاقة العقل بالنفس.

حب النفس

حب النفس والاهتمام بها فطرى ، ومن الخطأ أن يُنكر ، لكن المُنكَر هـو تجاوز الحد وقِصر النظر ، في ذلك وفي أى شيء آخر. وفـى فهـم العقـلاء لا يوجـد تعارض بين حب النفس وحب الآخر أو الغير ، بل يوجد تكامل لازم ، والحـب الحقيقى الواعى أوسع من أن يُحبس فـى إطـار النفـس الواحـدة ، فـالنفس هـى المركز - الخاص بالذات - الذى يحيط به عدد لا نهائى من الدوائـر التـى يمكـن أن ينساب الحب فيها ، وينمو الإلف حولها.

وللمسألة جوانب أخرى وصفات مكتسبة بالخبرة بجانب الفطـرة ، فمثـلا ، فـى الاستفتاء المفتوح الذى أجرته مجلة "العلم والناس" الأمريكية - مؤخرا - طلبـت من الجمهور الإجابة عن السؤال التالى:

ما الذى يهمك الآن؟ وما الذى يهمك عموما؟

وبحصر وتلخيص ربع مليون إجابة وصلت للمجلة كان ترتيب الأهمية كالتالى:

1 - صحتى.

2 - مستقبل أولادى.

3 - الرخاء الأمريكى والسلام العالمى.

4 - أن أسافر إلى القارات الخمس.

5 - أن أعيش حتى أرى سفينة أمريكية يهبط منها خمسة رواد على سطح المريخ يكون من بينهم واحد من أولادى أو أحفادى.

6 – ..... اهتمامات أخرى متنوعة.

وكانت هناك إجابات تتعلق بصحة كلب أو قط أو حصان بعض أصحاب الردود التى وصلت للمجلة. وفى نفس المجلة علق د. "والتر أرمسترونج" أستاذ علم النفس على نتيجة الاستفتاء قائلا: إنه فى هذا الزمن القلق من الطبيعى أن يكون إهتمام المواطن بنفسه أولا... فالشعب الأمريكى مصاب بجنون الخوف من المرض. وقال الأستاذ "روبرت أشيرو": إن هذه الإجابات كلها تدل على أن الخوف والقلق يسيطران على الشعب الأمريكى وعلى كل شعوب العالم أيضا.

ودون أن نعلق ننتقل إلى نقطة أخرى فنقول: إن أخطر ما فى الحب أنه قد يُنسى الحقائق ويُعمى (وكذلك الكُرْه) ، لأنه – فى الغالب – نشاط عاطفى أكثر منه عقلى ، أى أن العقل فى حالة الحب (أو الكره) يتراجع خلف العاطفة ؛ بسبب العمى والنسيان والتناسى. ولذلك فمخاطر الحب (أو الكره) قلما يفيد فيها العلاج العقلانى ، بل ينطبق عليها قاعدة أن "الوقاية خير من العلاج". وليس المقصود الوقاية من الحب ، ولكن المقصود هو التفكر فى حقيقة الشىء قبل الغرق فى حبه أو الاندفاع فى كرهه ؛ لأنه أثناء الغرق تقل إحتمالات النجاة وتختل الطباع والموازين ويتعرض العقل لما يشبه الشلل.

وفى حالة خمول العقل فالنفس تمتص من محيطها الكثير فى فترة النمـو والنشـأة ، وبعد ذلك تبدأ فى الطرح من نوعية قريبة الشبه بما امتصت.

نظرية الحب

الإنسان يحب نفسه وما يتعلق بهـا حبـا يفـوق إدراكـه ؛ فهـذا الحـب الفطـرى أعمق فى اللاوعى (أو الباطن) من أى فلسفات ، وهو فـى كـل الأحـوال فـوق كل الخيارات. والحب ينبع من النفس ويفيض منها على الآخريـن ، ولا يوجـد فيضان لا يغمر المنبع أولا. وقـد يزعـم الإنسـان - أو يحسـب - أن نفسـه قـد سمت وخف حبه لها ولكن حين يأتى المحك العملى ويمس شخصه أحد بما يخدش اعتزازه بنفسه ، أو يجد مـن يعمـل ضـد مصلحتـه - التـى يراهـا هـو - عندئـذ ينتفض فجأة كما لو كانت قد لدغته أفعى! فيشـعر بـألم معنـوى ، وقليـل مـن يستطيع السيطرة على الموقف وكتم غيظه وحبس غضبه فى أعماقه ، وأقـل منـه من يتسامح من أجل غاية أسمى يرجوهـا - لنفسـه أيضـا - عنـد ا لله. وليتـأمل كل منا شعوره حتى فى حال الثناء ، أى حين يمدحك زميـل ، فيشـعر الإنسـان بالسرور حال المدح ، وعندما تخف درجة المدح وتـأتى عبـارة : " ولكـن هنـاك ملاحظة بسيطة أرجو لفت إنتباهك إليها" ، عندئذ يبدأ الحال - عند معظمنا - فى التغير مع لفظ "ولكن" ، وقبل ذكر الملاحظة ، حتـى ولـو كـانت الملاحظـة نصيحة مخلصة! فحب النفس زرعه ا لله فيها كدافع ذاتى للحفاظ عليهـا وعلـى مصالحها ، وا لله - سبحانه وتعالى - أعلم بخلقه ، وهو أحكم الحاكمين.

الحب فضيلة ومعنى سام ، ويكفيه علوا أنه فعل منسوب للعلى الأعلى - جل شأنه وتباركت أسماؤه - فكل ما ينسب لله - عز وجل - يفيض كمالا وسموا.

وحب النفس هو البداية ؛ فمن لا يحب نفسه لايستطيع أن يحب غيره ، لأن الممارسة الأولى للحب تبدأ مع النفس ولا غبار على ذلك فى البداية ، وكل عالم الإنسان يدور حول نفسه وإن امتدت أبعاده وتشعبت آلياته. وما يذم بالنسبة للحب عموما - وحب النفس خصوصا - هو الجهل البهيمى الذى يعميه. وما مشاكل الدنيا - من حولنا - إلا بسبب الجهل الذى لطخ المعانى السامية للحب. وكم من الحماقات والسيئات التى ترتكب باسم الحب ، وكم من السموم والضلالات المدسوسة - التى تصل إلى درجة الكفر - يتم ترويجها بالمكر والتربح من ورائها فى أسواق المحبة المُدّعاة وتحت غطائها وعلى حساب البسطاء المخدوعين.

جميع أعمال الإنسان وتقلبات مشاعره ودوافعه يمكن ربطها - بصورة أو بأخرى - بأنواع من حب النفس ، وهنا نذكر منها عدة أمثلة وأدلة :

- السعى فى الحياة من أجل النفس وما يتعلق بها ويشبع رغباتها.
- كراهية الشر والضُر وتجنبهما هى ترجمة غير مباشرة لحب النفس ووقايتها.
- حب أولى الأرحام لارتباطهم العضوى بالنفس.
- حب الأتباع لارتباطهم الروحى بنفس الإمام والفوائد المعنوية المرجوة من طريقه.
- حب الصديق لتوافق النفس معه.

- عمل الطاعات والباقيات الصالحات هو حب بعيد النظر لمستقبل النفس.

وهكذا فالحب له غاية قد تكون خافية أو جلية - عاجلة أو آجلة - أما الحب الهلامى المزعوم والعديم الغاية فهو عبث ووهم كاذب. الحب شعور يترجم فى أقرب فرصة إلى عمل (قول أو فعل) ، والفعل فى هذا المجال أصدق من القول ، وإذا لم يترجم الحب إلى عمل فهو كذب وخداع. وكثيرا ما يحدث خلط بين الحب وكل من العطف والإشفاق والإعجاب والهوى ، ولكن يمكن بالعقل تمييز الحب عن غيره من المتشابهات ، فحب الإنسان للشيء يجعله يشعر بشدة الارتباط به ورفض البديل وعدم القدرة على تجاوز ذلك الشيء.

النفوس العظيمة منابع للحب الفياض الذى يغمرها ويفيض على الأقرب فالأقرب حسب طاقة الحب فى النفس. ورغم فيضان الحب من النفوس العظيمة إلا أنه ليس من الحكمة أن يوضع الحب فى غير موضعه ، وإلا فقد قيمته وضاع معناه أو انعكس ، لذلك يُحجب الحب عن النفوس الشريرة وذات الأفعال القبيحة وما شابه ذلك ؛ زجرا لها لتنتهى. ومعروف أنه يوجد من يزعم أنه كبير القلب لدرجة أنه يحب كل الناس (العدو والحبيب) ، "عمال على بطال" ، على حد التعبير العامى! وهذا الزعم المغلوط فيه خلط ولبس وبخس لقيمة الحب ، وهو قول يسهل نقضه - وربما التبس عليهم الحب بالإشفاق - فإن كان الحب للجميع فلمن يكون الكره! أم أنه يمكن معرفة معنى الحب

بدون معرفة معنى الكره ، أو البياض بدون السواد! وما تفسير الشعور الفاتر تجاه الكثير من الأشياء ، أى حالة عدم الحب وعدم الكره؟

إن أرحم الراحمين أحكم الحاكمين وخالق كل شيء قد نفى حبه للمعتدين والكافرين والظالمين والمختالين والخوانين والمفسدين والمسرفين والخائنين والمستكبرين ومن على شاكلتهم. والرسل الكرام حين طلبوا الغفران - وهو خير عظيم للنفس - طلبوه لأنفسهم أولا ، ثم اتسعت الدائرة لتشمل أرحامهم ، ثم بعد ذلك عامة المؤمنين. فهذا رسول الله نوح - عليه السلام - يدعو ربه فيقول: ﴿**رَّبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ الآية 28 - سورة نوح ، وما عدا ذلك من قومه دعا عليهم ﴿... **وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَاراً**﴾. وهذا أبو الأنبياء ، إبراهيم - عليه السلام ، يدعو ربه فيقول: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ الآية 41 - سورة إبراهيم ، عليه السلام. هذا هو الحب القيّم المتزن الواعى الذى لا يشمل إلا من يستحقه ، أما الإشفاق أو العطف فغير ذلك.

وحب الرسول لأتباعه من ذلك النوع الفياض ، وحب الرحمن الرحيم لعباده - وليس عبيده - فوق كل أنواع ودرجات الحب ، هذا من الجانب الفياض. وعلى الجانب المقابل ، فبالعقل والمنطق يمكن فهم من يقول: أحب نفسى وما تهواه وما تحتاج إليه نفسى ، وأحب من يشاركنى فى حب نفسى (حبيبى) ، وأحبه أكثر من نفسى من يحب نفسى أكثر من نفسى. وحب رسول الله -

صلى الله عليه وسلم – للمؤمنين وحرصه عليهم ورحمته بهم تفيض به كتب السيرة الشريفة ، وذلك الحب ثابت أيضا فى كتاب الله: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ الآية 128 – سورة التوبة.

وعظم الحب يتوقف على مدى الفهم ، وكذلك تدنى الحب يكون بسبب الجهل ، ومن المشهور مثل الدبة التى قتلت صاحبها ؛ بسبب جهلها لكيفية الحب والحرص على سلامته. والاندفاع فى حب الشهوات واتباع الهوى دليل جهل وقصر نظر وضعف عقل ، وهذا الحب مهلك ونتيجته السيئة قد تعادل نتيجة كراهية النفس ، دون أن يدرى صاحبها. وقَصر الحب على النفس (فقط) يُعميها ويهلكها هى ومن حولها ، ويفقد الحب معناه ويعكس جدواه ، ومَثل ركاب السفينة الوارد فى الحديث الشريف نموذج يوضح مدى خطورة هذا الحب الجاهلى ؛ فلو تُركوا يخرقوا فى أسفل السفينة خرقا ؛ ليختصروا طريق وصولهم للماء لهلك الجميع.

وخير الحب ما كان على هدى وعلم وفيه بعد نظر ، والعاقل من يحاول تعظيم حبه لسمو نفسه ؛ لتعظم ثم تفيض بحبها وسموها على الآخرين. وغاية النفس العاقلة هى نوال رضا الله فى جنات النعيم ، تلك هى الغاية التى ليس بعدها غاية ، وهذا هو الفوز المبين للنفوس التى تستحقه. أما الذى هانت عليه نفسه فباعها للشيطان وهو لا يدرى ، **فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية.**

والحب العظيم من جانب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للنفس المؤمنة يجعلها بالتالى تحب رسول الله أكثر من ذاتها : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ الآية 6 – سورة الأحزاب. وولاية النبى للمؤمنين تشمل مشاعرهم ، فتكون نفسه الشريفة – صلى الله عليه وسلم – أحب إليهم من أنفسهم. وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق عليه عن أنس ، رضى الله عنه: " *لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين*". وفى الصحيح أيضا أن عمر – رضى الله عنه – قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى. فقال – صلى الله عليه وسلم – :" *لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك*". فقال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى. فقال – صلى الله عليه وسلم – : " *الآن يا عمر*".

حب النفس العاقلة لله ثم لرسوله يأتى قبل وفوق حبها لنفسها ولكل ما يتعلق بها ، من أهل وتجارة ومساكن ؛ لأن نتيجة هذا الحب الطيب تعود على النفس بأضعاف مضاعفة. والآية الكريمة تحذر من الجهل بهذه الحقيقة : ﴿**قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ الآية 24 – سورة التوبة. وقد ورد فى سيرة خاتم المرسلين –

صلى ا لله عليه وسلم – أنه ما كان يغضب لنفسه قط ، وما كان يغضب إلا غيرة على حدود ا لله ، ومعنى ذلك أنه – صلى ا لله عليه وسلم – يحب ا لله أكثر من نفسه. وحب النفس المطمئنة لربها هو نوع متميز من الحنين الجارف للفرع نحو الأصل ؛ فأصل النفس نفخة من روح ا لله.

وملخص ما سبق أن أعظم الحب حب ا لله العظيم لعباده ، ثم يليه حب الرسول الكريم – صلى ا لله عليه وسلم – لأتباعه ، وبعد ذلك حب المقربين لربهم ثم حبهم لرسلهم ثم حبهم لأنفسهم ثم حبهم للصالحين من أولى أرحامهم وإخوانهم. ولا تعارض بين مستويات الحب المذكورة ، بل هو حب من حب وعلى حب. وحب النفس فى غياب الإيمان هو تضييع لها ؛ لأن من ينسى ا لله ينسيه ا لله نفسه ، فأى ضياع أشد من ذلك! حتى ولو كسب الإنسان الدنيا كلها!

الألفة مع الخصوصيات

معايشة الإنسان للشيء تزيد من فهمه وتصوره له وعلمه به ، وذلك رغم أن حقيقة الشيء لم تتغير كثيرا ، لكن المشاعر نحوه هى التى تتغير وفق ما يترجمه العقل ويتصوره. فالحقائق الكبرى – التى خلقها ا لله – تتميز بالثبات والحياد ﴿... لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ا للهِ ...﴾ الآية 30 – سورة الروم ، ولكن مدى استيعاب الإنسان لها هو الذى يتفاوت حسب التصورات. فمعايشة صاحب

العاطفة والعقل - إنسانا كان أو حيوانا - للشيء تطبع في عقله تأثيرات وأوهام يصعب تغييرها أو محوها بسرعة. فنرى الطير ينظر لعشه بعزة لا يشعر بها نحو بقية الأعشاش ، ويشعر فيه بقرة عين وراحة نفسية لا يجدها في عش آخر مماثل. والكل يسلم بالمثل القائل : "القرد في عين أمه غزال". وقد لوحظ أن بعض الأنعام عند عودتها من الحقل واقترابها من مقر مبيتها (الحظيرة) تسرع في السير وتحدث صوتا عاليا فيُعلم بذلك أنها قد وصلت - إلى ما تحب - هي ومن معها. ويمكن تفسير ذلك على أنه نوع من التعبير عن حبها للمكان الذي عرفته جيدا وألفته وأنست إليه وارتبطت به ، فسكن في ذاكرتها وسكنت هي فيه. فقد يهاجر الحيوان مضطرا ، ولكنها تكون هجرة على أمل العودة حين تتحسن ظروف الموطن الأصلي ، وهذا نوع من التحيز الخفي الذي لا تبرره الحقيقة المجردة ، لكنه موجود ويجب وضعه في الاعتبار. ولفظ حيوان هنا يشمل الإنسان أيضا وكذلك الطير وكل ما له حواس وعاطفة.

وقد يتولد في النفس عكس ذلك الشعور - لأسباب واضحة أو خفية - فيشعر الإنسان بالضيق والكراهية تجاه شيء ما رغم المعايشة الطويلة له ، ويود لو يستبدل بذلك الشيء شيئا آخر حتى ولو كان أدنى منه حقيقة ، وهنا يكون العجب لتغييب العقل وارتكاب الحماقات ﴿... **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** ...﴾ الآية 61 - سورة البقرة. وتلك هي الحالات الشاذة التي تحتاج إلى مزيد من التحليل والدراسة ومراجعة سلامة التفكير ، ومن المفروض أن تكون هذه الحالات قليلة ولكنها للأسف كثيرة! فمن المعقول

والمقبول أن يكره الحيوان (أو الإنسان) الشيء الذى يسبب له ذكريات أليمة ، ولكن ليس من المقبول – عقلا – أن يستبدله بما هو أدنى منه إلا إذا اختلت المقاييس ؛ بسبب ضعف العقل والرؤية وسيطرة عواطف الضيق والغضب ، فعندئذ تجد من لسان حاله يقول: "إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار". ولا ذنب للحمار فى مثل هذا الموقف!

وما العادات والتقاليد إلا ألفة وإيلاف لتصرفات وسلوكيات موروثة ومدعمة بالممارسة الشخصية. فمن تعود على لبس الجلباب يجد حرجا فى لبس "البنطلون" ، ومن ألف لبس القبعة يأنف من لبس العمامة ، ودور العقل العادى محدود فى مواجهة الإلف والعادة ، ومع نمو العقل تنمو القدرة على مواجهة وتغيير العادات.

وتفسير ارتباط الحيوان بمألوفاته ؛ أن الحيوان يتولد بينه وبين الأشياء التى يتعامل معها نوع من الفهم أو التفاهم والتواصل ، وكلما كانت محصلة هذا التفاهم لصالح الحيوان يشعر ذلك الحيوان بفائدة الشيء والرغبة فى مداومة الصلة به وتتولد وتنمو لديه المشاعر الإيجابية تجاهه ، حتى ولو كان ذلك الشيء فظا. فالسكين رغم بشاعة منظرها إلا أن الإنسان – العاقل – يشتريها ويقتنيها ويحتفظ بها لتلبية احتياجات مادية معينة. أما حينما يشعر الإنسان بأن محصلة التعامل مع الشيء ليست (أو لم تعد) فى صالحه أو حين تظهر له بدائل أكثر فائدة ، فسوف يشعر بالرغبة فى تحجيم الصلة بينه وبين ذلك الشيء ، وتتولد

تجاهه المشاعر السلبية التى قد تؤدى إلى قطع الصلة مع ذلك الشيء أو حتى محاربة وجوده ، فيصبح حبيب الأمس هو عدو اليوم! ومثل هذه المشاعر والتصرفات الحيوانية لا تعرف القيم الأخلاقية ولا المعانى السامية التى ينشدها العقل السليم.

وما دام أساس العلاقة الحاكمة بين الإنسان (أو الحيوان) والأشياء هو الاحتياج بأنواعه ، ومدى سهولة التفاهم على المنفعة أو الفائدة ، فلو رتبنا الأشياء التى نتعامل معها حسب أهميتها ومدى الاحتياج إليها ، فبلا شك سيأتى العقل فى المقدمة بلا منازع. إذن أشد الأشياء التى يألفها الحيوان هى عقله ، لأنه هو الوسيلة الحاكمة فى التفاهم مع بقية الأشياء الأخرى. وقد قالوا فى الأمثال : "إن الله - عز وجل - حين قسم الأرزاق لم يرض أحد برزقه ، وحين قسم العقول رضى كل بعقله".

فإلف الإنسان لعقله يجعله راضيا به ومفضلا فكره على فكر غيره ، دون أن يشعر بذلك أو يُقر به ، والأمثلة على ذلك تفوق الحصر. برغم تأثير الإلف الموضح قبلاً إلا أنه ذو أساس غريزى عاطفى أكثر منه عقلانيا علميا ، ولذلك فالإلف والعادات والميراث العقائدى والثقافى وما شابه ذلك يندر أن يكون فى صالح تنشيط العقل أو الحث على التقدم أو حتى التطوير ، بل إن مراجعة تأثيرات الإلف والموروث مطلوبة ما دام الإنسان حيا. وعموما فالنفس الطيبة

تألف الطيبات وتسعد بها والنفس الخبيثة تألف الخبائث وتتلذ بأذاها ، وما خبث لا يخرج إلا نكدا ، ولا يوجد ندرة فى الأمثلة الدالة على ذلك.

علاقات النفس

يوجد تداخل ظاهر بين النفس والروح والعقل الذى هو موضوع هذا الكتاب. ويمكن القول بأن النفس تشمل العقل كما تشمل الروح وهما غير ماديين ويعلق بهما الجسد وهو بناية مادية ، أى أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة ، كما هو ممثل وظيفيا فى شكل (١). والعقل قاسم مشترك بين الطبيعتين ويمكن أن تفتقد أجزاء من الجسم أو تفصل ، كالأطراف وتظل النفس حاضرة وفى حالة حياة ، أما الأجزاء التى فصلت (عن الروح) وتحللت رغم استمرار بقية الجسم حيا فتدل على أن المكونات المادية للإنسان مجرد شىء طارىء على النفس لتأدية وظائف وقتية ، ولا يرتبط بالنفس من الجسد إلا الأجزاء الحية إلى أن تموت أو تُفصل.

فتبعية مكونات الجسد للنفس (وعقلها) تبعية إدارية ، بمعنى أنه حين تنقل كِلية (مثلا) من شخص حى إلى آخر حى فتنتقل تلقائيا تبعيتها كاملة ، من نفس المنقول منه إلى نفس المنقول إليه ، والنفسان كما هما تقريبا. وحين ينقل كبد إنسان ميت (مجهول) إلى آخر حى تظل نفس الحى كما هى ولا يبدو لها أى

علاقة بنفس الميت المجهول! تلك مادة ترابيــة سبق أن دارت آلاف المرات فـى آلاف الأجساد ، وتعاملت معها ملايين النفوس.

وهنـا يمكـن أن نعتـبر شـعور المعانـاة النفسيـة فــى ظـاهرة "الطـرف الشـبحى Phantom limb"، الذى يتخيل الإنسان فيها أن طرفه المبتور لا يزال موجـودا وأحيانا يشعر بالرغبـة فـى "الهـرش" فيـه ، هـو مجـرد ذكـرى مـا زالـت آثارهـا موجودة فى ذاكرة العقل ، فيظل الإنسان يشعر بأنها أجـزاء متتامـة مـع الجسـم والذات.

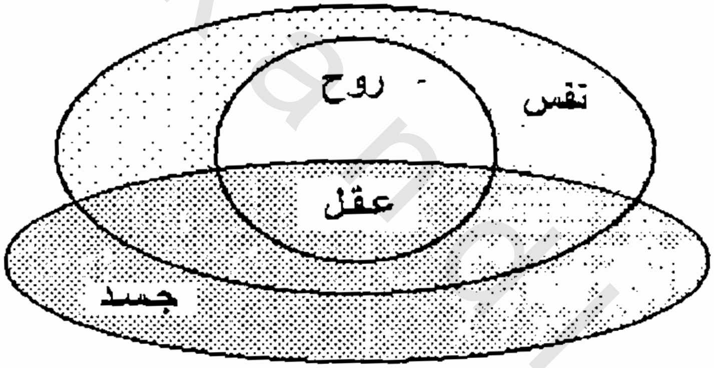

شكل (١). تصور العلاقات الوظيفية بين النفس والروح والعقل والجسد.

وحين تغادر الروح كل الجسم بما فيه المخ يسقط المكـون المـادى المظلـم الممثـل بالتظليل فى شكل (١) فيتبدل الحال وتشف النفس وتنتهى التبعية الدنيوية ، أمـا الجسد فيتحلل ليدور فى خلق جديد. وبهذا الانفصال يفقـد العقـل الكثـير مـن

وظائفه الإدارية التى كانت متعلقة بالجسد ، وما يرتبط بالغرائز والشهوات والاختيار والإرادة والقيادة وإصدار الأوامر للجوارح وما شابه ذلك ، ويبقى العقل كذاكرة عالقة بالروح رغم تلاشى المخ.

إن ما بعد الموت طور آخر من أطوار النفس البشرية - يتعذر تصوره - ولكنه يتسم بالشفافية وزيادة الوعى وحدة الشعور ؛ والدليل على ذلك نجده فى آيات كثيرة ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... **فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ الآية 22 - سورة ق.

وحين يخاطبنا خالقنا من خلال صحف الهداية فى هذه الدنيا نجد أنه - جل شأنه - يوجه الخطاب للنفوس من خلال العقول (الألباب) ؛ لأن العقل له سيطرة على الجوارح حال الحياة. فالعقل هو الرقيب على النفس فى الحياة الدنيا ، والله - جل وعز - هو الرقيب على العقل ، ﴿...**إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ الآية ١ - سورة النساء. أما على أعتاب الآخرة حيث اضمحلال الشق المادى من العقل ، فيسلب من العقل تلك الإمكانية ليبقى مجرد ذاكرة شفافة فيتوجه الخطاب حينئذ للنفس المتمثلة فى الروح وما علق بها من أعمال - لها أو عليها - وتكون المحاسبة للنفس حيث يتجمد دور العقل الذى كان قائدا للنشاط فى الدنيا فيتحول عند الموت إلى مجرد مراقب مرافق للروح يستعرض الماضى ولا يملك إرادة العمل ولا حرية الاختيار التى كانت ممنوحة له من قبل.

ففى حالة الموت يتحول الجسد (بدون الروح) إلى جثة - شبه جماد - ثم يضمحل ويتلاشى شيئا فشيئا ، ولا يتبقى منه إلا "الجسد الشبحى Phantom body". وعند البعث يعود لكل نفس (روح) جسدها ، ب"**كن**" وبالتركيب المقدر فى علم العليم الخبير ؛ ليشارك النفس - كشاهد حى - فى استقبال الجزاء العينى ، ويتبين للعقل عندئذ أن الحياة لم تكن إلا دورة فارغة إلا من العمل وما يعنيه ذلك العمل. أما الجسد المادى وحده أو بعض أجزائه فلا يمكن أن يمثل كل النفس ، لكن الروح يتيسر لها ذلك - ولا تتجزأ كالجسد - نظرا لصلتها الأصلية بالذات القديرة.

فى الدنيا يبدو أن العقل - بشبكته العصبية - هو مركز التحكم فى السلوكيات ، التلقائية المبرمج منها والمتعمد ، وينازعه الجسد - بمادته الثقيلة وشهواته - فى ذلك. فكثيرا ما تتغلب رغبات الجسد (الشهوات) على منطق العقل (الضعيف) ، والقليل من العقول هو الذى يقاوم ويصمد. ولذلك نجد بعض العُباد والرهبان يقسون بعقولهم على أجسادهم بأنواع من الحرمان ؛ لتقليص حجم وقدرة الجسد ، وبالتالى تحجيم رغباته فتتسع المساحة المتاحة لحرية الحركة والنشاط القيادى للعقل وقدراته التى كانت كامنة أو مغلوبة ، مما يمكن من تحليق الروح بالنفس المتخففة الزاهدة فى حطام الدنيا. وجدير بالذكر أن المغالاة فى ذلك يتعارض مع الطبيعة البشرية (المزدوجة) ويضر بالسلامة النفسية والعقلية ويمكن أن يصل لدرجة الهلوسة أو الانقلاب العكسى الخفى. وما

انتكاسات الرهبنة وما صاحبها من انحرافات وشذوذ إلا بسبب محاولة الخروج من إطار الطبيعة البشرية!

حياد الروح والجسد

فى محاولة أخرى لتصور النفس البشرية ، قد نشبه الجسد بمركبة للنفس ، والروح هى سر الطاقة المحركة للمركبة ، والعقل هو القائد الذى حمله ا لله المسئولية عن كل النفس حال اليقظة. والجسم من خلق ا لله وصلته به خلقية ، ولكن الروح من أمره – جل شأنه – وصلتها به نفخية. وبسبب ما تبين من التحليل السابق ، ننكر وجود جسد شرير أو روح شريرة ، بل هما محايدان ويوجد على ذلك دليلان:

الدليل الأول : الانتساب المباشر لكل من الجسد والروح لذات ا لله – تبارك وتعالى – أولا بالخلق ، وثانيا بالنفخ من روحه ، وهو سبحانه وتعالى خير ، ﴿... فَا للهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ الآية 64 – سورة يوسف ، عليه السلام. فهو سبحانه وتعالى حكم عدل بين خلقه جميعا ، ولا ينفعه الخير ولا يضره الشر. وما نراه أو نتأذى به من شرور فى هذه الدنيا ناتج من سوء تصرف الخلق وشرورهم: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ الآية 2 – سورة الفلق. وفضله – جل شأنه – فوق ذلك ؛ فهو يتولى تحويل الشر إلى خير لصالح المجنى عليه ، إن آجلا أو عاجلا حسب حكمته وعلمه.

obeikandi.com

والدليل الثانى : أن الجسد أثناء غيبة العقل – فى حالات التخدير أو النوم أو الغيبوبة – أو حال الموت يكون الجسد حياديا لا يفعل شرا ولا خيرا ، وكذلك المجنون لا تحتسب أخطاؤه شرورا ولا ما قد يُصيب فيه حسنات.

يستخلص من ذلك أن الجسم المادى (بشهواته) والعقل شركاء فى ذات حيز الكيان البشرى المحدود ، وطغيان (أو خلل أحدهما) ينعكس على الآخر ويخل بتوازن النفس. فمن الناس (الأنفس) من يميل نحو الشهوات بإفراط وبلا ضوابط ، ويتبع خطوات الشيطان الذى يخرب له عقله ويضله فتصبح النفس بالتالى شيطانية متوحشة أوَ مخمورة. ومنهم من يغالى فى ظلم الجسد وحرمانه من احتياجاته الفطرية ويستنزف طاقته – بتلبيس الشيطان – فيختل وعاء العقل (المخ) ويصل لحالات من الهلوسة ورؤية الأوهام ، وتلك حالات موجودة عند كل الشعوب وفى كثير من المعتقدات وعلى مر العصور بمسميات متباينة. وكلا الحالين بعيد عن الصواب ، وفيه ظلم للنفس نتيجة تضييع العقل ، بسبب متابعة الشيطان والشهوات فى غياب الهدى.

ومعروف أنه توجد نفوس خيرة سارت على الطريق القويم ، ونفوس دون ذلك ضلت الطريق. وكل نفس مجبولة على حب الخير ولكن منشأ الاختلاف يتوقف على مدى فهم العقل للخير وكيفية الوصول إليه ، ومن هنا نؤكد أهمية تبصير العقل بمعالم الهدى ، من أجل سعادة كل النفس فى الحياة الدنيا وفى القبر وفى دار القرار.

فناء الجسد فقط

للمخلوق دور سببى فى الخير وفى الشر وللعقل فيهما تدبير ، ويعلق العمل بالنفس – المرتبطة بالروح – فتوجد نفس طيبة خيرة ونفس خبيثة وخليط بين ذلك كثير ، حسب نوعية العمل. وكما ذكرنا من قبل يجب التمييز بين النفس والروح ، فالروح تغادر الجسد لكنها لا تفارق النفس أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وموت النفس يعنى مغادرة الروح للجسد المادى. ولذلك يمكن القول بأن الفناء مكتوب على الجسد فقط لا على النفس ولا على الروح ، والفناء المؤكد المذكور فى الأية 26 من سورة الرحمن: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ ، يمكن أن يُفهم على أنه خاص (بالمادة) ، أى بالجسد الموجود على الأرض (كمادة) ، ويفهم ذلك من لفظ "**عليها**" . ويؤيد هذا الفهم للآية الكريمة الأدلة التالية:

1 – معانى رجوع النفس – إلى ا لله – المشار إليه فى العديد من آيات الذكر الحكيم ، كختام سورة الفجر.

2 – النفس ليست طارئة مع الجسد المادى ، بل الجسد فقط هو الذى يطرأ عليها ثم يفصل عنها ، أما النفس فموجودة من يوم أن قال الخلاق العليم لبنى آدم: ﴿... **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا** ...﴾ الآية 172 – سورة الأعراف. و بخصوص هذه الآية ننقل من هامش صفوة التفاسير الفقرة التالية:

"إن ا لله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم فأقروا وشهدوا بذلك ، وقد روى هذا المعنى عن النبى - صلى ا لله عليه وسلم - من طرق كثيرة ، وقال به جماعة من الصحابة".

إذن فالأنفس كانت موجودة وحاضرة فى ذلك اليوم بدون أجساد ؛ لأن الأجساد ستطرأ فى الميقات المقدر فى علم ا لله - جل شأنه - ثم تفنى بعد ذلك. ولا يستقيم - فى الفهم البشرى - وجود نفس تتلقى الخطاب الحكيم والتعهد دون أن تعقل ، إذن فالعقل كان حاضرا - ضمن النفس - يوم أخذ العهدَ القديم ، لكن فى الطبيعة المناسبة لجلال الموقف ، وليست الطبيعة المزدوجة التى نلمسها فى الدنيا. فالشق المعنوى للعقل لا يموت ، ولكن شقه المادى (المخ وشبكته) هو الذى ينفصل ويتلاشى.

3 - وجوب الحضور حال التذوق : ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ...﴾ الآية 57 - سورة العنكبوت. فكل من الغائب والفانى ينتفى عنه معنى التذوق فى حال عدم وجوده ، وتذوق النفس للموت يعنى حضورها للحال كى تتذوق.

4 - الآية 42 من سورة الزمر ﴿**ا لله يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إِلَى أَجَلٍ**

مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وهنا ننقل الفقرة التالية من صفوة التفاسير :

"﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أى يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهى الوفاة الكبرى ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أى ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها أى الوفاة الصغرى ، وقال فى التسهيل : هذه الآية للاعتبار ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين : أحدهما وفاة كاملة حقيقية وهى الموت ، والآخر : وفاة النوم لأن النائم كالميت ، فى كونه لا يبصر ولا يسمع ، ومنها قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ وفى الآية عطف والتقدير : ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، وقال ابن كثير : أخبر تعالى بأنه المتصرف فى الوجود كما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الحفظة - الملائكة - الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ أى فيمسك الروح التى قضى على صاحبها الموت فلا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ الأخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أى ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى أجل محدود ، هو أجل موتها الحقيقى."

ويستفاد من ذلك أن الفناء مكتوب على البدن فقط ، أما النفس فحال موتها كحال نومها ، أى لها وجود (أو حضور) ما فى جميع الحالات.

5 – الآية 46 من سورة غافر ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِياً ...﴾ ، وننقل من صفوة التفاسير : "أى النار يُحرقون بها صباحا ومساء ، قال المفسرون : المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم فى القبور بدليل قوله بعده ﴿.. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوآ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ، أى ويوم القيامة يقال للملائكة : ادخلوا فرعون وقومه نار جهنم التى هى أشد من عذاب الدنيا."

6 – الأحاديث الشريفة الصحيحة التى وردت بخصوص الموتى وأهل القبور.

الانهزام النفسى

لقد أخبرنا العليم الخبير بأرسخ الحقائق ، ومنها حقيقة ضعف الإنسان ، ﴿... وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً﴾ الآية 28 – سورة النساء ، هذا علم وحكم من خلق – سبحانه وتعالى – أى أنه حكم حقيقى نهائى لا يقبل المراجعة ، ولا يحتاج إلى تعديل ولا تأويل. وللعاقل أن يتأمل حال أعتى الطغاة لو احتبس بوله أو أصابه "فيروس" ! وفوق هذا الضعف المادى فنحسب أن الآية الكريمة تشير أساسا إلى الضعف النفسى ، وهذا الضعف الحقيقى لا يمكن التغلب عليه بدون اللجوء إلى القوى العزيز فهو مصدر القوة ، وهو مسبب الأسباب ولا يعجزه شىء. وقد عرضت وسائل الإعلام حال أكثر من طاغية لحظة القبض عليه وهو يرتعش كالفأر المذعور فى مواجهة النهاية البائسة.

ويتولد الضعف النفسى حين يشعر الإنسان بتخلى الأسباب عنه وأنها أصبحت فى صالح خصمه ، حقيقة أو وهما. ولذلك ففى الصراع يحاول كل طرف أن يوهم الخصم بأن الأسباب أصبحت فى صالحه هو وأنه يملك أسباب القوة ، وإن نجح فى ذلك الإيهام يكسب المعركة بقليل أو بدون قتال وتلك هى الحرب النفسية المعروفة. وتلك فى الأساس مسألة عقلية ، وأولو العزم هم فى الأساس أصحاب عقول جبارة ، أنارها الإيمان ، فاتصلت بمصدر القوة والعزة ، ولا تعرف اليأس لأنها تثق فى خالقها ، وتعرف أن إثم اليأس يصل لدرجة الكفر ، والعياذ با لله.

وأسهل طريق يسلكه أعداؤنا هو احتلال عقولنا ، التى هى مراكز التحكم والسيطرة المباشرة فينا ، وبعد ذلك يفعلون بنا ما يشاءون ، وهذا حادث الآن بصور شتى وعلى كل المستويات ، نردد ما يريد العدو أن يقوله ، ونفعل ما يريد ونظلم أنفسنا بأيدينا وجوارحنا ؛ لأن عقولنا محكومة بعقول ومعايير غيرنا والإرادة مشلولة ؛ لأن التناقضات المصنوعة فى عقولنا لا تسمح بسلامة الرؤية ، لذلك لا نستطيع التحرك الذاتى بسهولة ، ومعظم حركتنا ليست إلا ردود أفعال أو انتفاضات مقهورة فى الظلمات. فانهزام الإنسان وقيادته يبدآن من الداخل (من العقل) وبعد ذلك تستسلم بقية الجوارح فتصبح كأعضاء الدُمى يُفعل بها الأفاعيل.

ترقية العقل والنفس

العقل المتجرد اليقظ يتوجه إلى أعلى ، نحو السماء والنور ، ولا يجد مبررا عقليا لمعظم الصراعات التى تموج بها الحياة السوقية ، أما الشهوات فتتسفل لتغوص باندفاع فى قذارات البهيمية والصراعات وسط الظلمات الحالكة المهلكة ، بدون التفكير فى العواقب ؛ بسبب قصر النظر وعمى البصيرة.

وبما أن الحاجة هى محرك الاختراعات ومولدة الإبداعات فهى التى تحث العقل على النشاط ، لذلكِ تجد الأزمات غالبا ما يعقبها صحوة وبروز للهمم التى كانت كامنة ، ويلاحظ أن كثيرا من المخترعات ظهرت فى سنوات الحروب. وعلى الجانب المقابل تجد الطمأنينة الزائفة والعواطف الهائمة والبطون المتخمة تسبب كسل العقول المترفة ، كل ذلك أو بعضه يحدث ركودا فى التفكير يعقبه درجة من درجات الضياع. فمن يشعر بالراحة ويمارس مختلف أنواع الترف والملذات ويركن إليها، لماذا يجهد عقله فى التفكير! لكن العاقل يدرك خطورة كسل العقل والركون للترف لانه لايمكن أن يدوم ، والاطمئنان للدنيا انخداع ، لذلك فالحذر واجب مدى الحياة ؛ لأن توالى الليل والنهار لا يترك حالا على حاله.

وأحيانا ينعم الله على أحبابه بالشدائد وطول المعاناة ؛ لصقل عقولهم وتجلية بصائرهم ، وكل العظماء حتى درجة الأنبياء قد مروا بأنواع من المعاناة قدرها

ا لله ، لترقية نفوسهم وإنضاج فكرهم وتعظيم أخلاقهم وإسباغ نعمة العقل عليهم. فلا نعرف عظيما عاش حياته منعما مترفا ؛ لأن الترف المادى يُعين الشهوات على العقل ويعمى البصيرة. وكما أن تحقيق البطولات الرياضية لا يمكن أن يتم بدون معاناة - حتى درجة الألم - فى التمرينات ، فالقدرات العقلية أيضا لا تتحقق بدون معاناة ذهنية وفكرية لدرجة الألم ، هذا شرط.

ونظرة سريعة لحياة البعض من صفوة الخلق نلحظ لمحات من المعاناة الطويلة التى عاشوها ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من عظمة. فسيدنا نوح "النجار" - عليه السلام - عانى حوالى ألف عام ، ولا نعرف له أبا دلـله أو نعمه ، بل نعرف ولدا عاقا وزوجة متعبة وقوما أشد إتعابا. أما إبراهيم - عليه السلام - فلا نعرف له أبا حنونا عطوفا كعادة الآباء ، وفوق ذلك معاناة قوم من صناع وعبدة الأصنام وأصحاب الفكر الضال والخرافات قسوا عليه لدرجة الإحراق.

والنشأة الغريبة لنبى ا لله موسى - عليه السلام - فى بيت فرعون ، لكنه كان فى رعاية ا لله الذى يعوضه عن كل شيء ويحوطه بالعناية التى لا تدانيها عناية ، ﴿.... **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ الآية 39 - سورة طه. ثم يقدر ا لله له الخروج لينجو بحياته ويعمل فى البادية لدى والد الزوج ، وفى أقسى الظروف لا يسأل إلا ربه ، ﴿... **فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ الآية 24 - سورة القصص. وهذا رقى فى الفهم يحتاج إلى شرح لا يسعه المجال هنا. وبعد ذلك تحمل أعباء الدعوة ومواجهة أعتى الطغاة.

والنشأة اليتيمة للعذراء الطاهرة خير نساء العالمين مريم ابنة عمـران – سـلام ا لله عليها – والأزمة المعنويـة التـى تعرضـت لهـا حـين حملـت بـدون زواج ، كيـف ستواجه مجتمع الجهال والغوغائية! ﴿... **قَالَتْ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً**﴾ الآية 23 – سورة مريم – عليها سلام ا لله. إنهـا أزمـة معنويـة بدا الموت أخف منها ، لكنها حكمة ا لله هكذا تصنـع النفـوس البالغـة العظمـة. وهذا ابنها المسيح – عليه الصلاة والسلام – يأتى للوجود وأمه الطاهرة فى قمـة الأزمة والمعاناة ، ولا أب يرعاه ليوفر له أسباب الرفاهية وجو الحماية المعتادة بين الناس ، لكنها حكمة العليم الخبـير ، فكلنـا عيالـه – سـبحانه وتعـالى – ورزقنـا عليه لا على البشر ؛ وهو الذى يحفظنا ويرعانا. وتلـك آيـات ليعتـبر بهـا أولـو الألباب ؛ لأن الف الاعتماد الظاهر علـى البشـر يجعلنـا نغفـل كثـيرا عـن خـالق البشر ، فنتعامل مع ظاهر الحقيقة المتوهم فنضل – ولا حول ولا قوة إلا با لله.

وهذا الجنين القرشى اليتيم ، خاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة ا لله للعـالمين – صلـى ا لله عليه وسلم – يُغيب أبوه فى التراب وهو لم يزل جنينا فى بطن أمـه ، فيطـل على االدنيا يتيما ، وكأن عبد ا لله بن عبد المطلب كان غاية دوره – السـببى – فى الحياة هو توصيل النـور المحمـدى إلى رحـم آمنـة بنـت وهـب فقـط لا غـير. وآمنة بنت وهب تغادر الدنيا قبـل أن يـدرك يتيمهـا مـن حقـائق الدنيـا شـيئا ، فيواجه متاعب الدنيا وجفاف البادية وقسوة الصحراء وجبال وشعاب البطحاء ، وينتقل من بيت إلى بيت كالنسمة الرقيقة ، ويؤخذ إلى غار حراء وحيـدا تاركـا الأهل ومتاع الدنيا ، رغم الثراء الذى كان متاحا له من التجارة ، وفـى رحـاب

البيت الآمن وسهرات وأسواق ونوادى أم القرى. إنها مرحلة الإعداد النهائى التى سيكلف فى ختامها بأمانة حمل الرسالة الخاتمة بين السماء والأرض ، ويواجة جبابرة الشرك وتلال الجهل. لكن عناية الرحمن الرحيم الذى لا يغفل ولا ينام تحفظه وترعاه فتغنى نفسه – بالحكمة – عن كل العالمين وتثريها بالعقل المبين ، وتغمر كيانه فى مؤانسة تخفف عنه آثار المعاناة ، وتفتح أبواب السماء ، وقرآنا يتنزل من اللوح المحفوظ: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ الآية 48 – سورة الطور. كيف يتيسر له الخلود للراحة ووحى السماء ينزل بالمنهج المطلوب تطبيقه فى الحال وقرآن لا تتحمله الجبال.

سنن وحُكم وحكمة: إن العظمة – وكل صفات الكمال والجمال – لا تصنع بالإرادة البشرية وحدها ، ولكنها تصنع بعناية الله فى نفوس من يختار من البشر ، وهو الأعلم بخلقه. وقد نلمح من ذلك أن المعاناة ليست شرا ، كما يرى قصار النظر ، بل إن الإعجاز الإلهى يجعلها سببا فى صنع النفوس العظيمة. ونعبر من ذلك فنقول بأن معاناة شعب ما لأزمة شديدة تكون فرصة لاغتنام السنن الإلهية فى تيسير أسباب صنع العظمة ، ولا يتحقق ذلك بدون قيادة رشيدة حكيمة عادلة تقتل الفتن وتضرب بنفسها المثل الصادق فى الترفع والزهد والبذل والعطاء فتنال رضى الله وتملك قلوب الناس ، وتلك مسألة عقل سليم.

obeikandi.com